الكبر

مُقَدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الكبر والعجب من أدواء النفس الخطيرة، التي تمثل انحرافاً خُلقيا، يجنح بالإنسان عن سبيل الهدى والحق، إلى سبل الردى والضلال؛ وذلك لأنه متى نفخ الكبر والعجب بالنفس في أنف المستكبر المغرور، واستوليا على عقله وإرادته: ساقاه -بعنف شديد، وتمرد لئيم- إلى بطر الحق، وردّه، وطمس معالمه، ثم إلى انتحال صور من الباطل، يعمل على تزيينها وتحسينها بالأقوال المزخرفة التي لا حقيقة لها، ويتبع ذلك غمط الناس واحتقارهم، صغاراً وكباراً - والعياذ بالله تعالى.

وسنتعرّض في هذا الفصل لبيان معنى الكبر، والفرق بينه وبين العُجب، وخطورته، ومظاهره، وأسبابه، وبعض آثاره، ونختم بالعلاج.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله تعالى العفو، والعافية، والمعافاة الدائمة، في الدين، والدنيا، والآخرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

تعريف الكبر

لغةً:

قال ابن فارس: «الكِبرُ: العظمة، وكذلك الكبرياء، يقال: ورثوا المجد كابراً عن كابر. أي كبيراً عن كبير في الشرف والعز»[١]، وذكر ابن منظور: «أن الكِبر والكبرياء: العظمة والتجبّر.... وقد تَكبَّر واستكبَر وتَكابَر، وقيل: تَكبَّرَ من الكِبر، وتَكابَر من السِّنّ، والتكبُّر والاستِكبار: التَّعظّم»[٢].

شرعاً:

عرفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ**» قالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَن يَكُونَ ثَوبُهُ حَسَناً، وَنَعلُهُ حَسَنَةً. قالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمطُ النّاسِ**»[٣].

فعرّف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبر بشقين هامين:

الأول: «بطر الحق» يعني جحود الحق مع الاستهانة به، والاستعلاء عن قبوله.

إننا نجد كثيراً من الناس، إذا عَرَضَ عليهم مَن دونهم في المكانة أو السن أمراً هو حق لا شك فيه، ولكنه جاء مخالفاً لرأيهم، أو لِما كانوا قرروه أو عملوا به: جحدوه، وأنكروه، واستصغروا صاحبه، وأصروا على مخالفته، وربما كانت مصلحتهم الخاصة في جانب الحق، لا في جانب الباطل الذي أصروا عليه.

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٥٤).

(٢) لسان العرب (٥/ ١٢٥).

(٣) رواه مسلم (٩١).

هـذا الصنف من النـاس موجود بكثرة، خاصة في المجتمعات الصغيرة: في الأسرة، وفي المدرسة، وفي العمل، وبين الزملاء.

إن المحـذور الذي يخشـاه هذا المتكبر إذا هـو قَبِلَ الحقَّ الصادرَ من غـيره: أن ينال المجدَ غيرُه، فيكبرَ عند الناس، وينازعَه المكانةَ التي يطلبها لنفسه؛لأنه يخشى أن يكون تابعاً لغيره.

ولو عقل هذا المستكبر وتبصر؛ لعلم أن مكانته ومنزلته هي في اتباع الحق، لا في التمادي في الباطل.

كتـب عمـر بن الخطـاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى أبي موسـى الأشـعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا يمنعنّـك قضاءٌ، قضيتـه بالأمـس، وراجعـت فيه نفسـك، فهُديت فيه لرشـدك، أن تراجع الحـق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»[1].

وقـال عبـد الرحمن بن مهـدي رَحِمَهُٱللَّهُ: «كنا في جنـازة فيها عبيد الله بن الحسـن وهو على القضـاء، فسُـئل عن مسـألة، فغلط فيهـا، فقلت: أصلحـك الله، القول في هذه المسـألة كذا وكذا، فأطرق سـاعة، ثم رفع رأسـه، فقال: إذن أرجع وأنا صاغر، إذن أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذَنَبا في الحق، أحبُّ إليَّ من أن أكون رأسا في الباطل»[2].

الثـاني: (غمط الناس)، والغمط: هو الاحتقار والازدراء والاسـتصغار، فغمط الناس هـو احتقارهم واسـتصغارهم والازدراء بهم، والترفع عن الثناء عليهـم بفضائلهم، وعدم الاعتراف بحقوقهم، وصفاتهم الفاضلة.

ويصـل طغيـان هذا الغمـط إلى أقصى مداه عندمـا يحاول هدم فضائـل الناس، وطمس كمالهم، وتحقيرهم وتصغيرهم بالكذب والبهتان؛ بُغية احتفاظ المتكبر بالمكانة العالية لنفسه دون الآخرين.

فالمتكـبر إذا لم يسـتطع أن يعتـلي مكانة المجـد بكمالاته، فإنـه يحـاول أن يعتليها بتحطيم كمالات الآخرين، والحطّ من مكانتهم.

---

(١) رواه الدارقطني (٤/ ٢٠٦).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٣٠٨).

الفرق بين الكبر والعجب

قال أبو وهب المَروَزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: «أن تزدري الناس».

فسألته عن العُجب؟ قال: «أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العُجب»[1].

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٧).

أسباب الكبر

يشعر المتكبّر بالاستعلاء الذاتي على الأقران، وبالتميز على الآخرين، وبالرغبة الجامحة بعدم الخضوع لأحد.

ويمكن حصر أسباب الكبر فيما يلي:

١. الرغبة في عدم الخضوع لأحد:

تتنامى هذه الرغبة في نفس المتكبّر، حتى يصل به الحال إلى التمرد على طاعة الله، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير.

ومع هذه الرغبة يأتي شعور المستكبر باستغنائه؛ فيتولد منه الطغيان، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: إن الإنسان يتجاوز حده، ويستكبر على ربه؛ لأنه رأى نفسه غنياً»[(١)].

٢. الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين:

المستكبر يجد أن مِن حقه على المجتمع أن يمنحه الامتياز والتفوق، وأن يعترف له به.

فإن لم يعترف المجتمع له بذلك، سوّلت له نفسه أنه يستطيع أن ينال ما يطمح إليه عن طريق الاستكبار.

٣. الرغبة في إخفاء المستكبر ما يشعر به من نقص في ذاته أو عمله:

المستكبر حريص أن يكون في أعين الناس كبيرا، وألا يكتشفوا نقصه، ثم هو باستكباره

---

(١) معالم التنزيل (٨/ ٤٧٩) بتصرف.

يفضح نفسه، ويدلّ الناس على عوراته؛ إذ يوجّه أنظار الناس إليه، باحثين عن حقيقة حاله، فيكتشفون أمره، ويستبينون نقصه، فيحتقرونه، ويستصغرونه.

ولقد كان باستطاعته أن يستر عيوب نفسه بالتواضع، ولين الجانب، والتحبب إلى الناس، والصمت عما يجهل، والاعتذار عما لا يُحسن، والبعد عن التحديات، وعن الادعاءات الباطلة.

٤. مبالغة الآخرين في التواضع:

قد يكون الباعث على الكِبر: مبالغة الآخرين في التواضع، وهضم النفس، والعزوف عن التقدم لتحمل المسئولية، أو تحمل الأمانة، فيرى المتكبر أن عزوف الناس عن ذلك إنما هو لإقرارهم بفضله عليهم، فلا يزال به الشيطان حتى يرى نفسه فوق الجميع، فيحتقرهم، فيقع في الكبر.

٥. اختلال القيم ومعايير التفاضل عند الناس:

من أسباب الكبر الباعثة عليه: اختلال معايير التفاضل عند الناس، فتراهم يقدِّمون الغني صاحب الجاه، ولو كان عاصيا فاسقا، ويؤخِّرون التقيّ النقيّ؛ لفقره وعدم وجاهته، فيكون ذلك سببا في تقديم من لا يستحق التقديم، فيقع في احتقار الآخرين، والترفع عليهم.

وقد أوضح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك بمثال عملي مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، معلنا رفضه المطلق لهذا المعيار، عند تقديم الناس، أو تأخيرهم.

فعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مَرَّ رجل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ما تَقُولُونَ فِي هَذا؟**»، قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أَن يُنكَحَ، وَإِن شفع أن يُشَفَّعَ، وإن قال أَن يُستَمَعَ، قال: ثم سكت، فَمَرّ رَجل من فقراء المسلمين، فقال: «**ما تَقُولُونَ فِي هَذا؟**» قالوا: حَرِيٌّ إِن خطب أَن لا يُنكَحَ، وَإِن شفع أَن لا يُشَفَّعَ، وإن قال أَن لا يُستَمَعَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذا خَيرٌ مِن مِلءِ الأَرضِ مِثلَ هَذا**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩١).

٦. مقارنة نعمته بنعمة الآخرين، ونسيان المنعم سبحانه وتعالى:

مِـن أسـباب الكـبر: أن ينظر الإنسـان إلى النعـم التي أنعـم الله بها عليه، ويقارن نفسـه بالآخريـن الذين منعهم الله تلك النعم؛ لِحِكَمٍ يعلمها سـبحانه وتعالى، فيرى أنه أهلٌ لتلك النعم، وأنها وصلت إليه لاسـتحقاقه لها، فينظر لنفسه نظرة المعظَّم، ويحتقر الآخرين الذين يراهم ليسوا أهلاً لتلك النعم.

❊ ❊ ❊

بماذا يحصل الكبر؟

النعم التي يتكبر بها أصحابها كثيرة، منها:

- **المال:**

قال الله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، وقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

وقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

- **العلم:**

وما أسرعَ الكبرَ إلى بعض المتعلمين.

فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم؛ فيستعظم نفسه، ويحتقر الآخرين، ويستجهلهم.

وسبب كبره بالعلم أمران:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يُسمَّى علماً وليس علماً في الحقيقة، فإن العلم الحقيقي هو ما يعرِف به العبدُ ربَّه ونفسه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ثانيهما: أن يخوض في العلم وهو خبيث النفس، سيء الأخلاق، فهذا إذا حفظ شيئاً من العلم وجد ما يتكبر به؛ فازداد تكبُّراً وتِيهاً.

كما قال المعري -العاري عن الفضائل- يمدح نفسه:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم يَأتِ به الأوائلُ[1]

ومن الكبر: ما يفعله بعض صغار طلبة العلم، حيث يجعل نفسه ندّاً للعلماء، فيقول: هم رجال، ونحن رجال !!

قال أيوب العطار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت بشر بن الحارث يقول: (حدثنا حماد بن زيد) ثم قال: «أستغفر الله، إنّ لِذِكرِ الإسناد في القلب لخيلاء»[2].

- **العمل والعبادة:**

فبعض الناس يتكبر بعبادته، فيرى حقاً على الناس أن يقدموه، ويذكروه بالورع والعبادة، ويرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجياً.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النّاسُ، فَهُوَ أَهلَكُهُم**»[3].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا قالَ الرَّجُل: هَلَكَ النّاس فَهُوَ أَهلَكُهُم» رُوِيَ (أَهلَكَهُم) على وجهين مشهورين: رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر... ومعناها: أشدهم هلاكا، وأما رواية الفتح، فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس، واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سرّ الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تَحَزُّناً لِما يَرى في نفسه وفي الناس من النَّقص في أمر الدين: فلا بأس عليه، كما قالت أم الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: دخل عليَّ أبو الدرداء وهو مغضب فقلت: ما أغضبك؟ فقال: «والله ما

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٤٥٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٦١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٣).

أعـرف من أمة محمد ﷺ شـيئا إلا أنهم يصلُّون جميعـا»[١]. هكذا فسره الإمام مالك، وتابعه الناس عليه»[٢].

قـال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبعـض المتزهدين عنده غفلة، يكاد يوطّن نفسـه على أنه ولي محبـوب ومقبـول، وربما احتقر غيره، وظنّ أن محلته محفوظة به، تغرّه ركيعات ينتصب فيها، أو عبادة ينصب بها، وربما ظن أنه قطب الأرض، وأنه لا ينال مقامَه بعده أحد»[٣].

روى الخطـابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابـه (العزلـة): أن عبـد الله بن المبـارك قدم خراسـان، فقصد رجلا مشـهورا بالزهد والورع، فلما دخل عليه لم يلتفت الرجل إليه، ولم يأبه به، فخرج مِن عنـده عبـد الله بن المبارك، فقال له بعض مَن عنده: أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا أمير المؤمنـين في الحديث، هذا عبد الله بن المبارك! فَبُهِـتَ الرجل، وخرج إلى ابن المبارك مسرعاً يعتذر إليه، ويتنصل مما حدث قائلاً: يا أبا عبد الرحمن، اعذرني، وعظني!

قال ابن المبارك: «نعم، إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرك على أحد إلا رأيت أنه خير منك». وذلك أنه رآه معجباً بنفسه[٤].

وأما السـلف الصالح: فكان أحدهم يقول: «نظرت إلى أهل عرفات، فظننت أنهم غُفِر لهم، لولا أني كنت فيهم»[٥].

والمؤمن لا يزال يحتقر نفسـه وعمله، قيلَ لِعُمَرَ بنِ عَبـدِ العَزِيزِ: يا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ لَو أَتَيتَ المَدِينَـةَ، فَـإِن قَضَى اللهُ مَوتاً دُفِنتَ في مَوضِعِ القَبرِ الرّابِعِ مَعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكرٍ وَعُمَـرَ. قـالَ: «واللهِ لأَن يُعَذِّبَنِي اللهُ بِكُلِّ عَذابٍ إِلا النّارَ -فَـإِنِّي لا صَبرَ لِي عَلَيهِ- أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن يَعلَمَ اللهُ مِن قَلبِي أَنِّي أُرانِي لِذَلِكَ أَهلا»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٥).

(٣) صيد الخاطر (ص١٣٥).

(٤) العزلة (ص٢٢٠).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٢٥٢) عن بكر بن عبد الله المزني.

(٦) الطبقات الكبرى (٥/ ٣١٦).

• النَّسَب:

بعض مَن له نسب شريف يحتقر مَن دونه في النسب، وقد يتكبر ويأنف من مخالطة الناس ومجالستهم، وقد يجري هذا الكبر والتفاخر على لسانه، فيقول لمَن يخاطبه: مَن أنت؟ ومَن أبوك؟ ومَع مثلي تتكلم؟!!

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيدنا، وأعتق سيدنا»[(١)] يعني بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن المَعرُورِ بن سويد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: رأيت على أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بُرداً وعلى غلامه بُرداً، فقُلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوبا آخر. فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي: «**أَسابَبتَ فُلاناً؟**» قلت: نعم، قال: «**أَفَنِلتَ مِن أُمِّهِ؟**» قلت: نعم، قال: «**إِنَّكَ امرُؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ**»، قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟! قال: «**نَعَم، هُم إِخوانُكُم، جَعَلَهُم اللهُ تَحتَ أَيدِيكُم، فَمَن جَعَلَ اللهُ أَخاهُ تَحتَ يَدِهِ فَليُطعِمهُ مِمّا يَأكُلُ، وَليُلبِسهُ مِمّا يَلبَسُ، وَلا يُكَلِّفُهُ مِن العَمَلِ ما يَغلِبُهُ، فَإِن كَلَّفَهُ ما يَغلِبُهُ: فَليُعِنهُ عَلَيهِ**»[(٢)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «هُم إِخوانكم» أي العبيد، أو الخدم، حتى يدخل من ليس في الرق منهم... ويؤخذ منه المبالغة في ذم السب واللعن؛ لما فيه من احتقار المسلم، وقد جاء الشرع بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام، وأن التفاضل الحقيقي بينهم إنما هو بالتقوى، فلا يفيد الشريف النسب نسبه إذا لم يكن من أهل التقوى، وينتفع الوضيع النسب بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]»[(٣)].

وقال في موضع آخر: «قوله: «إِنَّك اِمرُؤٌ فيك جاهِلِيَّة» أي: خصلة من خصال الجاهلية، ويظهر لي أن ذلك كان من أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يعرف تحريمه، فكانت تلك الخصلة من خصال الجاهلية باقية عنده، فلهذا قال: «قلت: على ساعتي هذه من كبر

---

(١) رواه البخاري (٣٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٦٨).

السن؟ قال: نَعَم» كأنه تعجب من خفاء ذلك عليه مع كبر سنه، فبيّن له كَونَ هذه الخصلة مذمومة شَرعاً»[١].

❊ ❊ ❊

(١) فتح الباري (١/ ٨٧).

أمثلة من المتكبرين
الذين صرفهم الكبر عن اتباع الحق

• **إبليس:**

الكبر هو الباعث لإبليس على الكفر، والتمرد على أمر ربه:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٧١-٨٧].

• **فرعون وجنوده:**

وكذلك فرعون وجنوده: كان الكبر هو الباعث على كفرهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨-٤٢].

- **ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

- **عاد قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

- **قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

- **قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥-٩].

- **بنو إسرائيل:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨].

- **مشركو العرب:**

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠-٢١].

❊ ❊ ❊

آثار الكبر على السلوك

للكبر آثار سيئة على سلوك المستكبر، فمن هذه الآثار:

الاستكبار عن الإيمان بالله، وعبادته، وطاعته:

قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

تصعير الخد للناس، ومشية الخيلاء:

من وصايا لقمان الحكيم لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وتصعير الخد للناس: هو إمالة الوجه عنهم على سبيل الاستكبار.

والمشي في الأرض مرحاً: هو المشي بطراً وكبراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي مستكبر على الناس، متعاظم عليهم.

﴿فَخُورٍ﴾ بنفسه، أو قوته، أو ماله، أو ذكائه، ونهى الله تعالى عن المشي في الأرض تكبراً، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وإذا كان مِن سلوك المتكبرين المشي في الأرض مرحاً، فمِن صفات عباد الله: المشي في الأرض تواضعاً، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وكان السلف يتحفّظون في مِشيتهم؛ فعن خالد بن معدان عن عمرو بن الأسود العنسي، أنه كان إذا خرج من المسجد قبض بيمينه على شماله، فسئل عن ذلك، فقال: «مخافة أن تنافق يدي».

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يمسكها؛ خوفاً من أن يَخطِر بيده في مشيته؛ فإن ذلك من الخيلاء»[١].

وكان علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا مشى لا تجاوز يده فخذيه، ولا يخطر بها[٢].

إطالة الثوب، وجرّه على الأرض:

عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَنظُرُ الله إلى مَن جَرَّ ثَوبَهُ خُيَلاءَ**»[٣].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: الخيلاء، والمخيلة، والبطر، والكبر، والزهو، والتبختر: كلها بمعنى واحد، وهو حرام. ويقال: خال الرجل واختال اختيالا: إذا تكبر»[٤].

عن جابر بن سُلَيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، اعهد إليّ، قال: «**لا تَسُبَّنَّ أَحَداً**»، قال: فما سببت بعده حرّاً، ولا عبدا، ولا بعيرا، ولا شاة، قال: «**وَلا تَحقِرَنَّ شَيئاً مِن المَعرُوفِ، وَأَن تُكَلِّمَ أَخاكَ وَأَنتَ مُنبَسِطٌ إِلَيهِ وَجهُكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِن المَعرُوفِ، وارفَع إِزارَكَ إِلى نِصفِ السّاقِ، فَإِن أَبَيتَ فَإِلى الكَعبَينِ، وَإِيّاكَ وَإِسبالَ الإِزارِ؛ فَإِنَّها مِن المَخِيلَةِ، وَإِنَّ الله لا يُحِبُّ المَخِيلَةَ، وَإِن امرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِما يَعلَمُ فيكَ، فَلا تُعَيِّرهُ بِما تَعلَمُ فيهِ؛ فَإِنَّما وَبالُ ذَلِكَ عَلَيهِ**»[٥].

وقد استُحدِثت الآن مظاهرُ كثيرة، دالة على الخيلاء في الثياب غير الإسبال، كأشكال

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٨٠)، تاريخ دمشق (٤٥/ ٤١٧).

(٢) سير اعلام النبلاء (٤/ ٣٩٢).

(٣) رواه البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٦٠).

(٥) رواه أبو داود (٤٠٨٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٠٩).

الثياب، وأصنافها، وما يُبذَل في الحصول عليها من أموال كثيرة؛ إسرافاً وتبذيراً، بقصد التفاخر والتعاظم والخيلاء.

يحب أن يسعى الناس إليه، ويقوموا له:

عن أبي مِجلَزٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: خرج معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس؛ فإني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن أَحَبَّ أَن يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجالُ قِياماً، فَلْيَتَبَوَّأ مَقعَدَهُ مِن النّارِ**»(١).

التقعر في الحديث:

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ مِن أَحَبِّكُم إِلَيَّ، وَأَقرَبِكُم مِنِّي مَجلِساً يَومَ القِيامَةِ: أَحاسِنَكُم أَخلاقاً، وَإِنَّ أَبغَضَكُم إِلَيَّ، وَأَبعَدَكُم مِنِّي مَجلِساً يَومَ القِيامَةِ: الثَّرثارُونَ، والمُتَشَدِّقُونَ، والمُتَفَيهِقُونَ**» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المُتَكَبِّرُونَ**»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والثرثار: هو الكثير الكلام بتكلُّفٍ، والمُتَشَدِّق: المتطاول على الناس بكلامه، الذي يتكلم بملء فيه؛ تَفاصُحاً، وَتَفَخُّماً، وتعظيما لكلامه، والمُتَفَيهِق: أصله من الفَهَق، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه؛ تكثُّرا، وارتفاعا، وإظهارا لفضله على غيره»(٣).

الاستهزاء، والسخرية، والهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب:

المتكبر يرى نفسه أعلى من الناس؛ فيحتقرهم، ويسخر منهم، ويستهزئ بهم.

الغيبة:

المتكبر يريد أن يُظهر أنه أعلى من غيره، فمن وسائله لتحقيق ذلك: الغيبة، وفضح عيوب الآخرين، وكشف نقائصهم.

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٢٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٣٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) وحسنه.

(٣) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٢/ ٤٤٥)، مدارج السالكين (٢/ ٣٠٧).

الترفع عن مجالسة الفقراء، والمساكين، والضعفة من الناس:

المتكبر يأنف من الجلوس مع من يراهم أقل منه مالاً، أو نسباً، أو طبقةً اجتماعية.

وكان هذا السلوك وراء صدّ بعض المشركين عن الدخول في الإسلام؛ فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة نفر، فقال المشركون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾(١).

وعن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، قال: «جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقروهم، فأتوه، فخَلَوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبُد! فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: «نَعَم»: قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة، ودعا عليا ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلس معنا،

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٣).

فـإذا أراد أن يقوم قام وتركنـا، فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

قـال خبـاب: «فكنا نقعـد مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فـإذا بلغنا السـاعة التي يقـوم فيها قمنا وتركناه، حتى يقوم»[(١)].

ملازمة العيوب والنقائص:

المتكبر أبعد الناس عن إصلاح نفسـه، أو معالجة عيوبه؛ لأنه يرى نفسـه قد بلغ الكمال، فلا يفتّش في عيوب نفسه، ولا يقبل نصيحة ناصح؛ فيبقى غارقاً في عيوبه ونقائصه، ملازماً لها، إلى أن تنقضي الحياة.

ويكون ممن قال الله تعـالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

عدم قبول النصيحة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

عدم تعلّم العلم:

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يتعلمُ العلم مُستَحيٍ، ولا مستكبر»[(٢)].

فالمتكـبر يحملـه الكـبر على الترفع والاسـتعلاء، فلا يكسـب من غيره علـماً، ولا خبرة، ولا مهارة، ولا تجربة، فيبقى طوال حياته جاهلاً، قصير النظر.

لا يبدأ من لقيه بالسلام:

وإن ردّ عليـه رأى أنـه قـد بالغ في الإنعام عليـه، ولا ينطلق للناس وجهُه، ولا يسـعهم

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.

(٢) رواه البخـاري تعليقـا (١/ ٣٨): «بـاب الحياء في العلم»، وأبونعيم في الحليـة (٣/ ٢٨٧)، وصححه الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٩).

خلقُـه، ولا يرى لأحد عليه حقا، ويرى حقوقه عـلى الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، ولا يزداد من الله إلا بعدا، ومن الناس إلا صَغارا، وبُغضا[١].

لا يمـشي إلا ومعـه غيره يمشي خلفه، ويحب التصدّر في المجالس، والشـهرة بين الناس، وأما المتواضعون: فإنهم يهربون من ذلك.

فعن عامر بن سـعد قال: «كان سـعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سـعد قـال: أعوذ بالله مـن شر هذا الراكب، فنـزل، فقال له: أنزلـت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟! فضرب سـعد في صدره، فقال: اسـكت، سـمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إِنَّ الله يُحِبُّ العَبدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ**»»[٢].

قـال النـووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المـراد بالغَنـيّ: غَنـيّ النفـس، هـذا هو الغنـى المحبـوب؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَكِـنَّ الغِنَـى غِنَـى النَّفـس**»... وَأَمّـا (الخَفـيّ): فمعناه: الخامـل، المنقطع إلى العبادة، والاشتغال بأمور نفسه»[٣].

❊ ❊ ❊

(١) الروح (ص٢٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٠٠).

عقوبة المتكبر

عقوبة المتكبر في الدنيا:

١. يعاقب المتكبر بنقيض قصده؛ فيحتقره الناس، ويستصغرونه:

وهـذا مـن الجزاء الرباني، والسـنن الربانية الجارية في هذا الكـون، فمن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الحق وضعه الله.

٢. الحرمان من النظر، والاعتبار، والاستفادة من آيات الله:

قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ أي عن الاعتبار في الآيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يتكبرون على عباد الله، وعـلى الحق، وعلى من جـاء به، فمَن كان بهذه الصفة حرمه الله خـيراً كثيراً، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح»[(١)].

٣. المتكبر توعده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعذاب في الدنيا:

عـن سـلمة بن الأكوع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَـزالُ الرَّجُلُ يَذهَبُ بِنَفسِهِ، حَتَّى يُكتَبَ في الجَبّارِينَ؛ فَيُصِيبُهُ ما أَصابَهُم**»[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٠٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠)، وقال: «حسن غريب»، وضعفه الألباني.

«لا يَزالُ الرَّجُلُ يَذهَبُ بِنَفسِهِ» أي: يُعلِي نفسه، ويرفعها، ويبعدها عن الناس في المرتبة، ويعتقدها عظيمة القدر، «حَتَّى يُكتَبَ في الجَبّارِينَ» أي في ديوان الظالمين والمتكبرين، كفرعون، وهامان، وقارون، أو معهم في أسفل السافلين[١].

إن هذا الحديث يصوّر حالة تدرج المستكبر في سلم الاستكبار والانتفاخ، حتى يكون جباراً من الجبارين، وأنه في أول حاله قد لا يكون كذلك، فليخشَ العاقل عاقبة الكبر، مهما كان في صغائر الأمور، فقد يتطور المرض اليسير، حتى يتدهوَر حال المريض، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

٤. الكبر سبب لزوال النعم، وحلول النقم:

عن سلمة بن الأكوع: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً أكل عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشماله، فقال: «**كُل بِيَمِينِكَ**»، قال: لا أستطيع، قال: «**لا استَطَعتَ، ما منعه إلا الكبر**» قال: فما رفعها إلى فيه[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا الحديث: جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر»[٣].

فهذا الرجل منعه الكبر من طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامتثال أمره؛ فكان عقابه العاجل: أن دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعجز، فاستجاب الله دعاء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصيب الرجل بالعجز في الحال.

أما يخشى المتكبرون الذين يمنعهم الكبر من اتباع الحق أن يسلبهم الله تعالى نعمه التي عصوه بها، وتكبروا بها؟!

٥. الكبر من أسباب الخسف، وعذاب القبر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَينَما رَجُلٌ مِمَّن كانَ قَبلكُم يَمشِي في حُلَّةٍ تُعجِبُهُ نَفسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذ خَسَفَ الله بِهِ الأَرض، فَهُوَ يَتَجَلجَلُ فيها إلى يَومِ القِيامَةِ**»[٤].

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ١١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٣/ ١٩٢).

(٤) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

قال الفيروز أبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خسف المكان: ذهب في الأرض... وخسف الله بفلان الأرض: غَيَّبَه فيها»[١].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(يَمشِي في حُلَّةٍ) إزار ورداء، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: «بَينَما رَجُل يَتبَخترَ في بُردَيهِ»، قوله: «مُرَجِّل جُمَّته» هي مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين، وإلى أكثر من ذلك، وترجيل الشعر: تسريحه ودهنه، قوله: «إذ خَسَفَ الله بِهِ الأَرض، فَهُوَ يَتَجَلجَل فيها إلى يَوم القِيامَة» التجلجل: التحرك، وقيل: الجلجلة: الحركة مع صوت، وقال ابن فارس: التجلجل: أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد، ويندفع من شق إلى شق، فالمعنى: يتجلجل في الأرض، أي: ينزل فيها مضطربا، متدافعا، ومقتضى هذا الحديث: أن الأرض لا تأكل جسد هذا الرجل، فيمكن أن يُلغَز به، فيُقال: كافر لا يبلى جسده بعد الموت»[٢].

عقوبته في الآخرة:

١. المتكبر هالك لا محالة مع الهالكين:

عن فضالة بن عبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلاثَةٌ لا تَسأَل عَنهُم: رَجُلٌ يُنازِعُ الله في كِبرِيائِهِ، فَإِنَّ رِداءَهُ الكِبرِياءُ، وَإِزارَهُ العِزَّةُ، وَرَجُلٌ يَشُكُّ في أَمرِ الله، والقَنُوطُ مِن رَحمَةِ الله**»[٣].

٢. أبغض الناس وأبعدهم مجلساً من رسول الله يوم القيامة: المتكبرون:

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ مِن أَحَبِّكُم إِلَيَّ، وَأَقرَبِكُم مِنِّي مَجلِساً يَومَ القِيامَةِ: أَحاسِنَكُم أَخلاقاً، وَإِنَّ أَبغَضَكُم إِلَيَّ، وَأَبعَدَكُم مِنِّي مَجلِساً يَومَ القِيامَةِ: الثَّرثارُونَ، والمُتَشَدِّقُونَ، والمُتَفَيهِقُونَ**». قالُوا: يا رَسُولَ الله، قَد عَلِمنا الثَّرثارُونَ والمُتَشَدِّقُونَ، فَما المُتَفَيهِقُونَ؟ قالَ: «**المُتَكَبِّرُونَ**»[٤].

---

(١) القاموس المحيط (ص١٠٣٩).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٦١).

(٣) رواه ابن حبان (٤٥٥٩)، والطبراني (٧٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

٣. المتكبر يلقى الله تعالى وهو عليه غضبان:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن تَعَظَّمَ في نَفسِهِ، أَو اختالَ في مِشيَتِهِ؛ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيهِ غَضبانُ**»(١).

٤. يُحشر المتكبرون يوم القيامة في غاية الذل والمهانة:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُحشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَومَ القِيامَةِ أَمثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغشاهُم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ، فَيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَس، تَعلُوهُم نارُ الأَنيارِ، يُسقَونَ مِن عُصارَةِ أَهلِ النّارِ، طِينَةَ الخَبالِ**»(٢).

قوله: «يُحشَرُ المُتكبِّرُونَ يَومَ القِيامَةِ أَمثالَ الذَّرِّ»: الذر: النمل الأحمر الصغير، فيحشرون أمثال الذر في الصغر، والحقارة.

(في صُوَرِ الرِّجالِ) يعني صورهم صور الإنسان، وأجسامهم كأجسام الذر في الصغر.

(يَغشاهُم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ) والمعنى: أنهم يكونون في غاية من المذلة والنقيصة، يطؤهم أهل المحشر بأرجلهم؛ من هوانهم على الله.

(يُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَس، تَعلُوهُم) أي تحيط بهم وتغشاهم (نارُ الأَنيارِ، يُسقَونَ مِن عُصارَةِ أَهلِ النّارِ) وهو ما يسيل منهم من الصديد، والقيح، والدم(٣).

ولأن المتكبر يأخذ حجما في الدنيا أكبر من حجمه، فإن الله تعالى يعاقبه يوم القيامة بإذلاله أمام الناس، ويُحشر كأمثال الذر.

٥. الكبر من أسباب المنع من دخول الجنة:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِهِ**

---

(١) رواه أحمد (٥٩٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٦): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩١٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢) وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني.

(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ١٦٢) بتصرف.

مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «**إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمطُ النّاسِ**»[١].

٦. المتكبرون متوعدون بالنار:

عن حارثة بن وهب الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أَلا أُخبِرُكُم بِأَهلِ الجَنَّةِ، كُلُّ ضعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَو أَقسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ، أَلا أُخبِرُكُم بِأَهلِ النّارِ، كُلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُستكبِرٍ**»[٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «(العُتُلّ): الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي الفظ الغليظ»[٣].

(جَوّاظٍ): هو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته. وقيل غير ذلك[٤].

(عُتُلّ): هو الشديد الجافي: والغليظ من الناس[٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احتَجَّت النّارُ والجَنَّةُ، فَقالَت النّارُ: يَدخُلُنِي الجَبّارُونَ والمُتَكَبِّرُونَ، وَقالَت الجَنَّةُ: ما لِي لا يَدخُلُنِي إِلّا ضعَفاءُ النّاسِ وَسَقَطُهُم؟ فَقالَ الله عَزَّوَجَلَّ لِلنّارِ: أَنتِ عَذابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَن أَشاءُ -وَرُبَّما قالَ: أُصِيبُ بِكِ مَن أَشاءُ- وَقالَ لِلجَنَّةِ: أَنتِ رَحمَتِي أَرحَمُ بِكِ مَن أَشاءُ، وَلِكُلِّ واحِدَةٍ مِنكُما مِلؤُها**»[٦].

قوله: «**اِحتَجَّت**» أي اختصمت، كما في رواية للبخاري[٧].

قوله: «**يَدخُلُنِي الجَبّارُونَ والمُتَكَبِّرُونَ**» قيل: هما بمعنى، وقيل: المتكبر المتعاظم بما ليس فيه، والمتجبر الممنوع الذي لا يوصل إليه، وقيل: الذي لا يكترث بأمر.

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٨٧).

(٤) تحفة الأحوذي (٧/ ٢٧٩).

(٥) حاشية السندي على ابن ماجة (٢/ ٥٢٧).

(٦) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، واللفظ له.

(٧) برقم (٧٤٤٩).

قولـه: «**ضُعَفاء النّاس وَسَـقَطهم**» أي: المحتقرون بينهم، السـاقطون مـن أعينهم، هذا بالنسـبة إلى ما عند الأكثر من الناس، وبالنسـبة إلى ما عند الله: هم عظماء رفعاء الدرجات، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم -لعظمة الله عندهم وخضوعهم له -في غاية التواضع لله، والذلة في عباده، فوصفُهم بالضعف والسـقط بهذا المعنى صحيح، أو المراد بالحصر في قول الجنة (إِلّا ضُعَفاء النّاس) «الأغلب»[1].

٧. المتكبرون متوعدون بدخول جهنم صاغرين:

قـال تعـالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: الكِبرِياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَن نازَعَنِي واحِداً مِنهُما قَذَفتُهُ في النّارِ**»[2].

فالكبرياء والعظمة لا يليقان إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فيما لا يليق إلا به؛ فاستحق أن يقذفه الله تعالى في النار.

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٥٩٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، وصححه الألباني.

علاج الكبر

اعلـم أن الكبر من المهلـكات، وإزالته فرض عين، ولا يزول الكـبر بمجرد التمني، بل بالمعالجة، فمن علاج الكبر:

استئصال أصل الكبر من القلب:

بأن يعرف العبدُ نفسـه، ويعرف ربه تعالى، فإنه إذا عرف نفسـه حق المعرفة، عَلِم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه حق المعرفة، علم أن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا بالله.

فمعرفته بنفسه: أن يتفكر في بداية خلقه، ونهايته، ووسطه.

أمـا بدايـة خلقه: فإن الله خلقه من نطفة، ثم من علقة، ثم مـن مضغة، ثم جعله عظاماً، ثم كسا العظام لحما.

فهـذه بدايـة خلقه، فلم يُخلـق في ابتدائه خلقا كاملاً، بل بدأ بموتـه قبل حياته، وبضعفه قبـل قوتـه، وبجهله قبـل علمه، وبضلاله قبل هـداه، وبفقره قبل غناه، فمـن أين له البطر، والكبرياء، والفخر، والخيلاء؟!!

ثـم إذا خـرج إلى هذه الحياة الدنيا سـلط الله عليه الأمراض والآفات، تنال منه، شـاء أم أبـى؛ فيجوع كرهـا، ويعطش كرها، ويمرض كرهـا، ويموت كرها، يريـد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينسـاه، ويريد أن ينسـى الشيء فيذكره، فهو عبد مملوك، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا خيرا ولا شرا.

فأي شيء أذل منه، لو عرف نفسه؟!

وأمـا آخـر حاله: فهو الموت، فيسـلب روحه، وسـمعه، وبصره، وعلمه، وقدرته، وحسـه، وإدراكه، وحركته، فيعود جمادا كما كان أول مرة، ثم يوضع في التراب، فيصير جيفة منتنة قذرة.

وليته بقي كذلك، بل يحييه بعد طول البِلى، ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره، إلى أهوال القيامة، وينشر له كتاب أعماله، ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]. ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

قال الأحنف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عجبت لمن يجري من مجرى البول مرتين، كيف يتكبر؟!»[١].

رأى مطرف بن الشخير رَحِمَهُ اللَّهُ يزيد بن المهلب يسحب حلته، فقال له: «إن هذه مشية يبغضها الله»، قال: أو ما تعرفني؟، قال: «بلى، أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة»[٢].

وقد نظم هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن محمد البسامي الخوارزمي فقال:

عجبتُ من مُعجَبٍ بصورتِهِ ... وكان مِن قبلُ نطفةً مَذِرَه[٣]

وفي غدٍ بعد حسنِ صورتِهِ ... يصيرُ في الأرضِ جيفةً قذره

وهو على عُجبِه ونَخوَتِهِ ... ما بين ثوبيهِ يحملُ العذره[٤]

وقال آخر:

يا مُظهرَ الكبرِ إعجاباً بصورتِهِ ... انظر خلاءك إن النّتن تثريبُ

لو فكر الناسُ فيما في بطونهمُ ... ما استشعر الكبرَ شبانٌ ولا شيبُ

يا ابنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً ... أقصِر؛ فإنك مأكولٌ ومشروبُ[٥]

النظر والتأمل في الأسباب التي تكبّر بها، وإدراكه أنه لا يليق به التكبر بها:

من يعتريه الكبر من جهة النسب؛ فليصلح قلبه بمعرفة أن هذا جهل، من حيث إنه تكبر بكمال غيره.

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٥٠٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٥).

(٣) مذرة أي قذرة، القاموس المحيط (ص٦٠٩).

(٤) وفيات الأعيان (٦/ ٢٨٤).

(٥) عيون الأخبار (ص١١٦).

وكيف يليق بعاقل أن يتكبر بكمال غيره؟!

عن أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انتسب رجلان على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أُمَّ لك؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انتَسَبَ رَجُلانِ عَلَى عَهدِ مُوسَى عليه السلام، فَقالَ أَحَدُهما: أَنا فُلانُ بنُ فُلانٍ -حَتَّى عَدَّ تِسعَةً- فَمَن أَنتَ لا أُمَّ لَكَ؟ قالَ: أَنا فُلانُ بنُ فُلانٍ ابنُ الإِسلامِ، قالَ: فَأَوحَى الله إلى مُوسَى عَلَيهِ السَّلام: أَنَّ هَذَينِ المُنتَسِبَينِ: أَمّا أَنتَ أَيُّها المُنتَمِي أَو المُنتَسِبُ إلى تِسعَةٍ في النّارِ: فَأَنتَ عاشِرُهُم، وَأَمّا أَنتَ يا هَذا المُنتَسِبُ إلى اثنَينِ في الجَنَّةِ: فَأَنتَ ثالِثُهُما في الجَنَّةِ**»[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَد أَذهَبَ عَنكُم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ، وَفَخرَها بِالآباءِ، مُؤمِنٌ تَقِيٌّ، وَفاجِرٌ شَقِيٌّ، والنّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِن تُرابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخرَهُم بِأَقوامٍ إِنَّما هُم فَحمٌ مِن فَحمِ جَهَنَّمَ، أَو لَيَكُونُنَّ أَهوَنَ عَلَى الله مِن الجِعلانِ، الَّتِي تَدفَعُ بِأَنفِها النَّتْنَ**»[2].

(عُبِّيَّة الجاهِلِيَّة) أي: فخرها وتكبرها ونخوتها.

(مُؤمِن تَقِيّ وَفاجِر شَقِيّ): قال الخطابي: «معناه: أن الناس رجلان: مؤمن تقي، فهو الخيِّر الفاضل، وإن لم يكن حسيبا في قومه، وفاجر شقي، فهو الدني، وإن كان في أهله شريفاً رفيعاً».

وقيل: معناه: أن المفتخر المتكبر: إما مؤمن تقي، فإذن لا ينبغي له أن يتكبر على أحد، أو فاجر شقي، فهو ذليل عند الله، والذليل لا يستحق التكبر، فالتكبر منفي بكل حال.

(أَنتُم بَنُو آدَم، وَآدَم مِن تُراب): أي فلا يليق بمن أصله التراب: النخوة والكبر.

(لَيَدَعَنَّ): بلام مفتوحة في جواب قسم مقدر، أي: والله ليتركنّ.

(إِنَّما هُم): أي أقوام (أَو لَيَكُونُنَّ): أي: ليصيرُنّ (أَهوَنَ): أي أذلّ (عَلَى الله): أي

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٢٠٦٧٤)، والبيهقي في الشعب (٤٧٧٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

عنده (مِن الجِعلان): دويبة سوداء، تدير الخراء بأنفها (الَّتِي تَدفَع بِأَنفِها النَّتن): أي العذرة[١].

عن أبي ريحانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن انتَسَبَ إلى تِسعَةِ آباءٍ كُفّارٍ، يُرِيدُ بِهِم عِزّاً وَكَرَماً: فَهُوَ عاشِرُهُم في النّار**»[٢].

ومن تكبر بسبب العلم؛ فليعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأن مَن عصى الله على علم فجنايته أعظم.

وليعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى، فإذا تكبر صار ممقوتاً عند الله، بغيضاً، فهذا مما يزيل التكبر، ويبعث على التواضع.

وليعلم أن التكبر بالعمل والعبادة فتنة عظيمة على العباد.

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**كانَ رَجُلانِ في بَنِي إسرائِيلَ مُتَواخِيَينِ، فَكانَ أَحَدُهما يُذنِبُ، والآخَرُ مُجتَهِدٌ في العِبادَةِ، فَكانَ لا يَزالُ المُجتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنبِ فَيَقُولُ: أَقصِر، فَوَجَدَهُ يَوماً عَلَى ذَنبٍ، فَقالَ لَهُ: أَقصِر، فَقالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثتَ عَلَيَّ رَقِيباً؟! فَقالَ: والله لا يَغفِرُ الله لَكَ -أَو: لا يُدخِلُكَ الله الجَنَّةَ-. فَقَبَضَ أَرواحَهُما، فاجتَمَعا عِندَ رَبِّ العالَمِينَ، فَقالَ لِهَذا المُجتَهِدِ: أَكُنتَ بِي عالِماً؟ أَو كُنتَ عَلَى ما في يَدِي قادِراً؟ وَقالَ لِلمُذنِبِ: اذهَب فادخُل الجَنَّةَ بِرَحمَتِي، وَقالَ لِلآخَرِ: اذهَبُوا بِهِ إلى النّارِ**».

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده، لَتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[٣].

وقد وصف الله تعالى السابقين إلى الخيرات بأنهم يعملون الطاعات، وهم على وَجل وخوف أن لا يقبل الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه

---

(١) عون المعبود (١٤/ ١٦).

(٢) رواه أحمد (١٦٧٦١)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٤٣١).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه الألباني.

الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت: أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُم الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُم يَخَافُونَ أَن لا يُقبَلَ مِنهُم، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ**»[(١)].

الدعاء والاستعانة بالله تعالى:

عَن عَمرِو بنِ مُرَّةَ عَن عاصم العنزي، عن ابنِ جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ عَن أَبِيهِ قالَ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا دخل الصلاة قال: «الله أكبر كبيرا، والحَمدُ للهِ كَثِيراً -ثَلاثاً- سُبحانَ اللهِ بُكرَةً وَأَصِيلاً -ثَلاثاً- أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ: مِن نَفخِهِ وَهَمزِهِ وَنَفثِهِ»

قالَ عَمرٌو: نَفخُهُ: الكبر، وهمزه: الموتة، ونفثه: الشعر[(٢)].

التواضع:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت**»[(٣)].

قال ابن حجر رحمه الله: «(فتنطلق به حيث شاءت) في رواية أحمد: (فتنطلق به في حاجتها)، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع؛ لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء، أي أمة كانت، وبقوله (حيث شاءت) أي من الأمكنة.

والأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف، حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه، وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ»[(٤)].

عن الأسود رحمه الله قال: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «**كان يكون في مَهنة أهله -تعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**»[(٥)].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه أبو داود (٧٦٤)، وابن حبان (١٧٨٠)، واللفظ له، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٩٠).

(٥) رواه البخاري (٦٧٦).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(في مَهنَةِ أهله) وقد فسرها في الحديث بالخدمة، والمراد بالأهل: نفسه، أو ما هو أعم من ذلك. وقد وقع مفسرا في الشمائل للترمذي من طريق عمرة عن عائشة بلفظ: «ما كان إلا بشرا من البشر: يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه» ولأحمد وابن حبان من رواية عروة عنها: «يخيط ثوبه، ويخصف نعله». وفيه الترغيب في التواضع، وترك التكبر، وخدمة الرجل أهله»[١].

عن جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: تقولون فيَّ التيه، وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة، وقد حلبت الشاة، وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن فَعَلَ هَذا فَلَيسَ فيهِ مِن الكِبرِ شَيءٌ**»[٢].

(فيَّ التيه): الكبر، أي: في نفسي الكبر، (وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة) هو كساء يُتغطى به، ويتلفف فيه، (من فعل هذا) أي المذكور من ركوب الحمار، ولبس الشملة، وحلب الشاة، (فليس فيه من الكبر شيء) فإن هذه الأفعال لا يأنف منها إلا المتكبرون[٣].

عن عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه مر في السوق، وعليه حزمة من حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عن هذا؟ فقال: أردت أن أدفع الكبر عن نفسي، سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يدخل الجنة مَن في قلبه خردلة من كبر**»[٤].

❊ ❊ ❊

(١) فتح الباري (٢/ ١٦٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠١) وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ١١٨).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٣٦٣)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٩١٠).

الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص: وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد: وهو الذي جَرَّأ أحد ابني آدم على أخيه. فمن وُقِيَ شَرَّ هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشر. فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد**»[1].

نسأل الله أن يجعلنا من الذين يتواضعون له، ولخلقه، ويعافينا من الكبر، وأهله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

(١) الفوائد (ص٥٨).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف الكبر في اللغة.
٢. عرّفَ النبي ﷺ الكبر تعريفاً جامعاً مانعاً، فما هو تعريفه؟
٣. للكبر أسباب متعددة، فما هي أسبابه؟
٤. بِمَ يحصل الكبر؟
٥. ما هي أصول الخطايا؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما الفرق بين الكبر والعجب؟
٢. متى يكون العلم سبباً للكبر؟
٣. بماذا يعاقَب المتكبر في الدنيا؟
٤. بماذا يعاقب المتكبر في الآخرة؟
٥. كيف نعالج المتكبر؟